مفاهيم جمالية لدى الغزالي

CONCEPTOS ESTÉTICOS EN AL-GHAZALI

AESTHETIC CONCEPTS IN AL-GHAZALI'S THOUGHT

Ahmad Tuama Halabi*
Universidad de Qatar

Recibido: 30/01/2025 **Aceptado:** 26/11/25

BIBLID [1133-8571] 32 (2025) 139-155

ملخص البحث: لا يمكن الزعم بأن الفلاسفة والعلماء والمتصوفة المسلمين قد أسَّسوا علم الجمال، أو امتلكوا نظرية في علم الجمال، أو ألَّفوا كتبًا متخصصة في هذا المجال، ولكن يمكن القول إنهم امتلكوا مفاهيم جمالية ونظرات متناثرة في بطون مؤلفاتهم.

ويعدّ أبو حامد الغزالي (450-505/ 1057-1111) ممن امتلك نظرات ومفاهيم واضحة في الجمال وقيمه ومعانيه أو قيمة معانيه. وقد انطلق في فهمه للجمال من الأخلاق والتصوف، فقد أراد في كتابه «إحياء علوم الدين» بعث الأخلاق في المجتمع وإحياءها، وتربية الناس على ما هو جميل. وأراد الرقيَّ بالروح والوعي البشري والذوق والحس عند الإنسان، وتقريبه من الله، في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى». وهذا ما سعى إليه أيضًا في معظم مؤلفاته، وبثَّ هنا وهناك معاني وقيمًا يمكن استخلاص مفاهيم جمالية من خلالها.

وقد انطلق في تلك المفاهيم من الحق المطلق والجمال المطلق والخير المطلق، كان منطلقه من الذات الإلهية، وكانت غايته الإنسان، سعيًا للسموّ به والرقي نحو الأسمى والأجمل.

وما يسعى إليه هذا البحث هو الوقوف عند تلك النظرات والمعاني والمفاهيم الجمالية لدى الغزالي.

الكلمات المفتاحية: الغزالي- علم الجمال- الجلال- الكمال.

Resumen: No se puede afirmar que los filósofos, científicos y sufíes musulmanes hayan establecido una ciencia de la estética, poseído una teoría estética o escrito libros especializados en este campo. Sin embargo, sí se puede decir que poseían conceptos estéticos y visiones dispersas a lo largo de sus obras.

Entre quienes tuvieron visiones y conceptos claros sobre la belleza, sus valores y significados, destaca Abū Ḥāmid al-Ġazālī (450-505 H). Su comprensión de la belleza partía de la ética y el sufismo. En su libro *Ihyaʾ ʿUlūm al-Dīn* (La Revitalización de las Ciencias Religiosas), buscaba revivir y reavivar la moral en la sociedad, educando a las personas en lo que es bello. En su libro *al-Maqṣad al-Asnà fī Šarḥ Asmāʾ Allāh al-Ḥusnà* (El Propósito Sublime en la Explicación de los Nombres Más Bellos de Dios), aspiraba a elevar el alma, la conciencia humana, el gusto y el sentido en el ser humano, acercándolo a Dios. Esto también lo buscó en la mayoría de sus obras, difundiendo aquí y allá significados y valores de los cuales se pueden extraer conceptos estéticos.

* Email: ahmadtuamahalabi@gmail.com ORCID: https://orcid.org/0000-0002-0676-295X

En esos conceptos, partió de la Verdad Absoluta, la Belleza Absoluta y el Bien Absoluto, teniendo como punto de partida la Esencia Divina y como objetivo al ser humano, buscando elevarlo y guiarlo hacia lo más sublime y bello.
Lo que esta investigación busca es examinar esas visiones, significados y conceptos estéticos en al-Ghazali.
Palabras clave: al-Ghazali - Estética - Majestad - Perfección.

Abstract: It cannot be claimed that Muslim philosophers, scientists, and Sufis established the science of aesthetic, possessed a theory of aesthetic, or authored specialized books in this field. However, it can be said that they possessed aesthetic concepts and scattered insights within their various works.
Among those who held clear views and concepts on beauty, its values, and meanings is Abū Ḥāmid al-Ġazālī (450-505 AH). His understanding of beauty stemmed from ethics and Sufism. In his book *Iḥyāʾ ʿUlūm al-Dīn* (The Revival of the Religious Sciences), he aimed to revive and instill ethics in society and to cultivate an appreciation for what is beautiful. In his book *al-Maqṣad al-Asnà fī Šarḥ Asmāʾ Allāh al-Ḥusnà* (The Sublimest Aim in Explaining God's Most Beautiful Names), he sought to elevate the human spirit, consciousness, taste, and sensibility, and to bring humanity closer to God. This is also what he strived for in most of his writings, disseminating meanings and values here and there from which aesthetic concepts can be derived.
His starting point for these concepts was absolute truth, absolute beauty, and absolute goodness. His point of departure was the Divine Essence, and his ultimate goal was humanity, striving for its elevation and ascent towards the most sublime and beautiful.
This research seeks to examine these aesthetic views, meanings, and concepts in the thought of Al-Ghazali.
Keywords: al-Ghazali – Aesthetic – Majesty – Perfection

1- تمهيد:

1-1- الجمال وتجلياته:

الجمال قائم في الكون كله، من سماء وأرض ونجوم وكواكب، وفي الكائنات كلها، من جماد ونبات وحيوان وإنسان. وهو جمال موضوعي ظاهر، لا سبيل إلى إنكاره، ولكن إحساس الإنسان به هو الذي يجعله قيمة جمالية، ويعطيه حقيقة وجوده، ومعناه، وهذا هو الجمال الطبيعي. ولا شك أن أسمى معانيه تتجلى في الإنسان. وجمال الإنسان منه ما هو ظاهر في صورته الخلقية، أي في جسمه وفي ملامحه، ومنه ما هو خفي باطني، في أخلاقه وفي مزاجه، وتعبّر عنه أفعاله ومواقفه.

وثمة جمال ثانٍ، هو الجمال الفني، وهو الجمال الذي يصنعه الإنسان، في العمارة والنحت والتصوير والموسيقى والشعر والأدب، وسائر الفنون الجميلة من مسرح وسينما وغيرها من الفنون.

وثمة جمال ثالث، وهو في الحقيقة الأول، وهو الأصل، ومصدر الجمال، وهو الجمال الكلي المطلق، وهو جمال الله عز وجل. ويتجلّى جماله في أسمائه الحسنى، وفي الكون كله، وفي أشكال الكائنات كلها، التي أبدعها وأتقن صنعها، فهي آية من آياته، وفيها قبس من نوره. وكل قيم الجمال ومعانيه تصدر عنه، فهو الجمال الكلي المطلق.

1-2- الجمال عند العرب:

الفنون، واعتنَوا بها، حتى وهم في العصر الجاهلي؛ فقد كانوا على تواصل مع الشعوب وقد عرف العرب والحضارات المجاورة، وكانت لهم فنونهم البسيطة في حياتهم الصحراوية، وعرفوا الأنماط والثياب المزركشة. وهي على بساطتها تدل على ذوق جمالي، يقول زهير بن أبي سُلمى متحدثًا عن البُسُط والسجاجيد الرقيقة الناعمة التي كانوا يضعونها على ظهر الناقة، ولا سيما في الهوادج الخاصة بالنسوة، فيقول[1]:

عَلَوْنَ بأنماطٍ عِتاقٍ وكِلَّةٍ رِقاقٍ حواشيها مُشاكِهَةِ الدَّمِ

(1) زهير بن أبي سلمى، الديوان، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1964، ص 9.

وتدل الأصنام التي عبدها العرب قبل الإسلام على قدر غير قليل من فن النحت والتزويق، يقول ابن الكلبي[2]: «فقد كان هُبَلُ من عقيق أحمر على صورة الإنسان، مكسور اليد اليُمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدًا من ذهب خالص». أما «ذو الخُلَصَة» فيقول عنه[3]: «كان من مَرْوَةٍ بيضاء، منقوشة عليها كهيئة التاج».

وما يُروَى عن قصري الخورنق والسدير وعن قصر غمدان يدل على تطور فن العمارة والهندسة والبناء، وما في العمارة من جمال. ويؤكد أن حياة العرب قبل الإسلام لم تكن قاحلة كما يتوهم المرء، بل كانت غنية بقيم الفن والإحساس بالجمال، وتكفينا للدلالة على ذلك الإشارة إلى وصف الناقة والفرس وصفًا فنيًّا جماليًّا لدى الشعراء الجاهليين؛ مما يعني أن العربي لم يكن يحس نحوها بالفائدة والمنفعة فقط، بل كان يحس بجمالها، ويدلّ وصف امرئ القيس لفرسه على الاستمتاع بمظاهر الجمال في فرسه والتغني بها، وهو الذي يلقي عليها في نهاية الوصف نظرة تأمل فنية، فيقول[4]:

ورحنا يكاد الطَّرْفُ يَقْصُرُ دونَه متى ما ترقّ العين فيه تَسَهَّلِ

فهو ينظر إلى فرسه ويتأملها، ويحار أين ينظر فيها، فينتقل في نظره من أعلى إلى أسفل، وبالعكس، ليدل على تأملها، والاستمتاع بجمالها.

1-3- تطور الفنون في العصور الإسلامية:

ومن الطبيعي أن تتطور الفنون عند العرب بعد ظهور الإسلام، واستقرارهم في الأمصار، واتساع اتصالهم بالشعوب والأمم والحضارات، وتتحدث الدكتورة راوية عبد المنعم عباس عن اهتمام المسلمين بالفن، فتقول[5]: «اهتم المسلمون بالفنون والجماليات بشكل كبير... ولا يمكن أن نتجاهل دور المسلمين الإبداعي في مجال الخلق الفني، أو نتغافل عن ذكر إسهاماتهم الفنية في الحضارة، وفي تاريخ الوعي الجمالي والفني». وتضيف الدكتورة عباس[6]: «ارتبط فن الرسم عند المسلمين بالخط وأنواعه، كما ارتبط بصناعة الكتب التي برعوا في تجليدها وتغليفها وزخرفتها برسوم هندسية لحيوانات وطيور. والذي لا شك فيه أن قمة الزخرفة والإبداع الإسلامي قد بدت واضحة في تزيين المصاحف والمخطوطات والأبسطة، وكذلك المنسوجات الفاخرة والأخشاب المطعمة بالعاج».

وتأثر العرب المسلمون بالفنون التي اطلعوا عليها عند الشعوب المجاورة، ولكنهم استطاعوا أن يصبغوا فنونهم بصبغة خاصة تميزهم، يقول الدكتور محمد عزيز نظمي سالم[7]: «ازدهرت الفنون والزخارف والعمارة الإسلامية بعد انتشار الإسلام، وتطوَّرت فنون التصوير وامتزجتا بفنون فارس والمغول والرومان والهند... وعلى امتداد العصور الأموية والعباسية... نجد روائع الفنون ورُواد فن التصوير ... وإن كان الرواد الأوائل من المسلمين قد استمدوا أصول زخارفهم من الفنون البيزنطية والساسانية وغيرها، فإنهم طوروها وأدخلوا عليها الكثير. ويكفي أنهم استحدثوا فن الأرابيسك الذي تتمثل فيه اللانهائية في الزمان والمكان، منتجة تكرار الوحدة الزخرفية والخطوط الهندسية، ولعل نزعة الفنانين نحو تكرار الوحدة الزخرفية تعبّر عن المفهوم الأشعري الذي يقسم الوجود إلى ذرات ووحدات أولية بسيطة».

(2) ابن الكلبي، كتاب الأصنام، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، ط3، 1995، ص 28.
(3) المرجع السابق، ص 34.
(4) امرؤ القيس، الديوان، تحقيق: د. محمد الشوابكة، و د. أنور أبو سويلم، دار عمار، الأردن، 1998، 1/ 274. وفي رواية: تسفل بدلًا من تسهل.
(5) عباس، د. راوية عبد المنعم، الحس الجمالي وتاريخ الفن، دراسة في القيم الفنية والجمالية، دار النهضة العربية، بيروت، 1998، ص 96-97.
(6) المرجع السابق، ص 77.
(7) سالم، د. محمد عزيز نظمي، الفن بين الدين والأخلاق، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1996، ص 18.

وكان للأدباء نظرات في الجمال وانطباعات عبّروا عنها في مواضـــع متناثرة من مؤلفاتهم، ثم كان للفلاســـفة بحوث جمالية. وجاء من بعدهم المتصـوفة لتكون لهم نظرتهم الخاصـة إلى الجمال، يقول الدكتور عفيف بهنسـي[8]: «ليس من كتاب صـادر عن مفكر مسـلم أو عربي يفرد للجمال موضـوعًا مسـتقلًا أو يتحدث عن علم الجمال وفلسـفة الفن... أما الفكر الصـوفي فلقد كان حدسـيًّا بذاته، وتحدث عن الجمال الإلهي أكثر من حديثه عن الجمال الموضـوعي... ترى مفهوم الجمال عند الفارابي وابن سـينا على أنه صـــفة لوجود الموجود، وهو متعلق بالكمال، ولذلك فهما يتحدثان عن جمال الله وجمال المقولات، وهو الجمال الحقيقي والمطلق، وليس النسبي».

1-4- علاقة الفن بالدين والأخلاق:

وليس غريبًا أن يتأثر الفلاسـفة والمتصـوفة بالدين الإسـلامي في فهمهم الجمال، بل ليس غريبًا أن يكون الفن مرتبطًا بالدين، فقد كان هذا حال الفن على مر العصـور. يقول الدكتور محمد عزيز نظمي سـالم[9]: «لعل نظرة واحدة إلى منجزات العمل الفني وآثاره التي تأثرت بالدين، كالمعابد والكنائس والمسـاجد والصـور والتماثيل، تؤكد أنّ تأثير الدين في الحياة الفنية عميق وقوي، وأنّ هناك فنونًا ظهرت متأثرة بالدين كالأدب الصـوفي». ثم يؤكد ارتباط الفن بالدين، ويشـير إلى أنه لم ينفصـم عنه إلا في أوربا وفي عهود متأخرة، فيقول[10]: «سـار كل من الفن والدين معًا، على مر العصـور، إلى أن ظهرت بوادر الانفصـام بينهما في أوربا... وبلغت أشدها في عصر النهضة».

ولذلك كان الفن مرتبطًا دائمًا بالأخلاق منذ عهد الإغريق، يقول الدكتور محمد عزيز نظمي سـالم[11]: «إن هناك عنصـرًا أخلاقيًّا في النشـــوة الجمالية، ولكي تتبدى الأشـــياء جميلة يجب أن تنطوي على الخير، فالأعمال الفنية الجميلة زاخرة بالخير والعواطف والأفكار الســـامية... وكان الفلاســـفة اليونانيون يربطون بين الحق والخير والجمال، ونخص بالذكر أفلاطون وكذلك الرواقيين، فالرواقية كانت ترى أن الشيء الجميل هو الخير الكامل».

ولكن هذا لا يتناقض مع كون الجمال مرتبطًا بالحواس، ولا ينفي كونه لذة عقلية، لأن الحواس هي المدخل إلى العقل، فالفن يحدث تأثيرًا حسيًّا في الجسم، لكنه يُدْرَك بالعقل. يقول برتليمي[12]: «إن الحسية في حقيقتها تعني وجود اللذة الجمالية متضمنة في الإدراك ذاته، كما تعني أن هذه اللذة تحدث رنينًا في الجسم كله... لأن الجميل هو الذي يسر النظر والسمع واللمس العضلي أحيانًا، والشعور الذي ينتج في الحواس ينتقل إلى الجسم».

ويزيد برتليمي الفكرة وضـــوحًا فيقول[13]: «إذا كان الخير لا يتحقق إلا في الأعمال والســـلوك البشـــري، فإن الجمال على عكس ذلك يتجسـد في الأشياء المرئية الملموسـة المسـموعة، التي تدركها الحواس». ولكنه يؤكد أن الهزة العاطفية وحدها غير كافية لإدراك الجمال، ولا بد من الفهم العقلي، فيقول[14]: «إن الشـيء الجميل يختص به العقل، ولن يصـعب علينا أنّ نثبت أن إدراك الجمال في جميع الفنون مرتبط بإدراك علاقة أو نسـبة ما... والمؤكد أنّ للجميل صـفة تتلخَّص في تحقيق التناسـق بين الحسـاسـية والفهم العقلي، إلا أن الحكم المبني على الذوق يرجع إلى العقل نفســه، ويتميز التأمل الجمالي إذن تميُّزًا واضـــحًا عن مجرد الاهتزاز العاطفي».

(8) بهنسي، د. عفيف، الفكر الجمالي عند التوحيدي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997، ص 56.
(9) سالم، د. محمد عزيز نظمي، الفن بين الدين والأخلاق، ص 13.
(10) المرجع السابق، ص 14.
(11) المرجع السابق، ص 22.
(12) برتليمي، جان، بحث في علم الجمال، ترجمة: د. أنور عبد العزيز، ود. نظمي لوقا، دار نهضة مصر، القاهرة، 1970، ص 380.
(13) المرجع السابق، ص 379.
(14) المرجع السابق، ص 382.

2- الغزالي عصره وحياته ومؤلفاته:

2-1- عصر الغزالي:

عاش الغَزَالي[15] في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (450–505 هـ)، وهو العصر الذي شهد قيام الدولة السلجوقية، وقد أسسها طُغْرُل بك عام (432 هـ) في خُراسان، وامتدت إلى خُوارُزم وطبرستان وأذربيجان، والعراق والجزيرة الفراتية. وانتصرت هذه الدولة على البيزنطيين، وضمت إليها آسيا الصغرى، وورث الدولة ألب أرسلان بعد وفاة طغرل بك عام (455 هـ) وهو ابن أخيه. وشجَّع العلم والعلماء، وتولى وزيره الحسن بن إسحاق الطوسي أمور العلم، وهو المعروف بنظام الملك. وقد أسس المدارس النظامية في بغداد والبصرةِ والموصلِ، وبلخ ونيسابور وأصفهان ومرو، وتُعَدُّ هذه المدارس جامعات في المفهوم المعاصر.

وفي هذا العصر برز علماء وأدباء كبار، من مثل عمر الخيام (توفي عام 515 هـ)، والحريري صاحب المقامات (446–516 هـ)، والميداني (توفي 518 هـ) مؤلف كتاب «مجمع الأمثال»، والقُشَيْري (376–465 هـ) صاحبِ «الرسالة القشيرية» في التصوف، وأبو الفتح الشهرستاني (479–548 هـ) صاحب كتاب «المِلل والنِّحَل»، وإمام الحرمين الجويني (419–478 هـ) وكان يدرّس الفقه الشافعي في المدرسة النظامية في نيسابور، وعليه تتلمذ الغزالي. وفي هذا العصر ازدهرت علوم الفلسفة والتصوف والفلك والتفسير والفقه والأدب والتاريخ.

وفي عصر الغزالي أيضًا برزت جماعات المتصوفة والمتكلمين والباطنيين والفلاسفة. وقد اطَّلع على ثقافاتهم كلها، وعرفها، ورد على الباطنية في كتابه «فضائح الباطنية». ورد على الفلاسفة في كتابه «تهافت الفلاسفة». وتأثر بالمتكلمين والمتصوفة، ولكنه كان له موقفه الخاص ورأيه المختلف ولاسيما في علم الكلام وفي التصوف؛ فالتصوف عنده حب ومعرفة، وليس حبًّا محضًا. وموضعه القلب، ويعني به الروح والعقل لا العاطفة، وسيتضح هذا في البحث.

2-2- حياة الغزالي:

والغزالي هو حجة الإسلام أبو حامد محمَّدُ بنُ محمَّدِ بنِ محمدِ بنِ أحمدَ الغزَّالي، بتشديد الزاي، لأن والده كان يعمل في غزل الصوف، وبالزاي المخففة، نسبة إلى قرية غزالة. وُلِدَ عام 450 هـ–1058 م، في قرية الطابَرَان قرب مدينة طوس في خراسان، في الشمال الشرقي من إيران وهي مدينة مشهد اليوم. وقد رعاه أحد المتصوفة بعد وفاة أبيه، ثم ارتحل إلى جُرجان، حيث تلقى العلْمَ عن أبي نصر الإسماعيلي. ثم ارتَحل إلى نيسابور في خُراسان، حيث أخذ المذهب الشافعي في المدرسة النظامية عن الجُوَيْنِي إمام الحرمين الشريفين. وبعد وفاة الإمام الجويني عام (478 هـ) قدِمَ إلى بغداد، وكانت عاصمة الثقافة في ذلك العهد، وعمل بالتدريس في المدرسة النظامية، وهو في الرابعةِ والثلاثين مِن عُمْرِه، وفيها قرأ مؤلفات الكِنْدِي (185–256 هـ)، والفارابيّ (260–229 هـ)، وابن سينا (375–428 هـ)، وألف كتابه «تهافت الفلاسفة»، وفيه ردَّ على الفلاسفة.

تَرَكَ التدريسِ في بغداد سنة (488 هـ) زاهدًا في الشهرة، وانطلق إلى دمشق، ليقيم فيها سنتين، منصرفًا إلى تأليف كتابِه «إحياء علوم الدين»، معتكفًا في منارةِ المسجد الأموي. ثم ارتحل إلى مكة المكرمة؛ ليؤدي فريضة الحج، وفي طريقه مرّ بالقدس، ويروى أنه زار الإسكندرية.

أقام في مكة عامين ثم قَدِمَ إلى بغداد، ولم يلبث أن غادرها متوجهًا إلى طوس، حيث أقام في بيته ليتفرَّغ للعبادة والتدريس والتأليف. وفي عام (498 هـ) كلفه الوزير فخر الدين بن نظَامِ الملك بالتَّدريسِ في المدرسةِ النِّظَاميَّةِ في نَيْسابور، وبعد عامين قُتِلَ الوزير، فعاد إلى طوس، ولزم بيته، منصرفًا للتدريسِ والعبادة، إلى أن توفي سنة (505 هـ)، وجرى دفنُه في قرية الطابَران التي كان قد ولد فيها.

(15) ينظر في ترجمة الغزالي: مقدمات التحقيق لكتبه، والشامي، صالح أحمد، الإمام الغزالي، دار القلم، دمشق، 1993.

3-2- أهم مؤلفاته:

وضع الغزالي مؤلفات كثيرة في الدينِ والفلسفة والتصوف، تبلغ حوالي مئة مؤلف، ولكن بلغ ما نسب إليه نحو أربعمئة كتاب، وهذا دليل شهرته. ويُعَدُّ كتابُه «إحياءُ علومِ الدين» من أوسع كتبه شهرة، وأكثرها أهمية. وفيه يعالج موضوعات تربوية ودينية وأخلاقية وفلسفية وجمالية، ولهذا الكتاب أكثر من مئة وعشرين مخطوطة موزعة في مكتبات العالم، مما يدل على أهميته في عصره، وله أكثر من عشرين مختصرًا. وقد ترجم إلى عدة لغات منها الكردية والأوردية والفارسية والألمانية والإسبانية.

يقول الدكتور فروخ عن «إحياء علوم الدين»[16]: «نُقلت كتب الغزالي وخصوصًا "إحياء علوم الدين" إلى اللاتينية قبل عام (1150 م)، أي بعد أن يتوفى الغزالي بأقل من أربعين سنة، فأعجب به فلاسفة اليهود والنصارى، فاقتبس منه أبو الفرج العبري (ت 1286 م) في "كتاب الحمامة" في الأخلاق. وتأثر به بهيا بن يوسف بن باكودا في "كتاب الهداية إلى فرائض القلوب". وكذلك اعتمد عليه ألبرت الكبير والقديس توما وبعض متأخري الفلاسفة في العصور الوسطى».

ويمتاز الغزالي بالذكاء، وتوقد الذهن، وقوة الحجة، ويمتاز بالنظرة التأملية العقلية إلى الكون، والقدرة على التعرف على مظاهر الجمال في مختلف أشكال تجليها، في الكون والكائنات، وهو يردها إلى المصدر الأول وهو الخالق عز وجل، صاحب الجلال والكمال.

3- المفاهيم الجمالية لدى الغزالي:

وعالج الغزالي كثيرًا من المعاني والقيم والمفهومات الجمالية، وكتب عنها في مواضع متناثرة في مؤلفاته الكثيرة، ولم يخصَّها بكتاب بعينه، أو بمقالة مفردة. وكانت معالجته لها من خلال بحثه في موضوعين اثنين، الأول هو سعيه إلى شرح معاني أسماء الله الحسنى. وفي هذا الشرح توصَّل إلى قيم ومعان جمالية، وظهر هذا أبرز ما ظهر في كتابه: «المقصد الأسنى إلى شرح معاني أسماء الله الحسنى». والثاني سعيه إلى إصلاح الأخلاق وتقويمها، وتوضيح القيم النفسية والخلقية والجمالية في العبادات. وظهر هذا في عدد غير قليل من مؤلفاته، وكان أبرزها في كتابه: «إحياء علوم الدين». وهو يسعى بإحياء علوم الدين إلى إحياء الأخلاق وقيم الجمال.

ولو جمعت أقواله وآراؤه ودرست لأمكن الخروج بنظرية متكاملة في الجمال والتجربة الجمالية، مرجعها الأول هو الجمال الكلي المتحقق في الله عزَّ شأنه. وعلى ذلك فالقيم الجمالية عند الغزالي هي قيم الدين والأخلاق، ولا يزعم هذا البحث بأنه سينهض بهذه المهمة، إنما حسبه أنه ينبِّه على هذا الموضوع، ويدعو إلى القيام بتلك المهمة في دراسة علمية جامعية موسعة.

3-1- مرجعية الجمال إلى الله:

يؤكد الغزالي مرجعية الجمال بأشكاله كلها إلى الله عز وجل، وهي القيمة الأولى التي أعلى من شأنها، وانطلق منها في كل آرائه عن الجمال؛ لأنّ–بحسب رأيه– كل ما في الكون هو من خلق الله تعالى، وكل ما في الكون جميل بجمال الخالق، يقول[17]: «كلُّ ما في العالَمِ مِنْ حُسْنٍ وإحسانٍ فهو حَسَنَةٌ مِنْ حَسَنَاتِ جُودِه، يسُوقُها إلى عبادِه بخطْرَةٍ واحدَةٍ يخلُقُها في قلبِ المحُسن، وكلُّ ما في العالَمِ مِنْ صُورةٍ مليحةٍ وهيئةٍ جميلةٍ تُدْرَكُ بعينٍ أو سَمْعٍ أو شَمٍّ فأَثَرٌ مِنْ آثارِ قُدْرَتِه، التي هي بعضُ معانِي جمالِه وجلالِه». والغزالي بعيد البعد كله عن القول بوحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد.

يؤكد قيمة الجمال في الجسم البشري أشار إلى القبح في بعض المواضع، وأكد ستر الله تلك المواضع. كما أكد أن مصدر الجمال هو الله، وذلك في سياق شرحه معنى الغفار من أسماء الله الحسنى، فقال[18]: «هو الذي أظهرَ الجميلَ، وسَتَرَ القبيحَ، والذنوبُ مِن جُمْلةِ القبائحِ التي سَتَرَها بإرسالِ السِّتْرِ عليها في الدنيا والتجاوُزِ عن عقوبتِها في الآخرةِ... والغَفْرُ هو السَّتْر، وأَوَّلُ

(16) فروخ، د. عمر، عبقرية العرب في العلم والفلسفة، كتاب الجيب، العدد 139، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 139، كانون الثاني، 2019، ص 184.
(17) الغزالي، الأربعين في أصول الدين، عناية: محمود بيجو، مطبعة الفوال، دمشق، 1994، ص 236–237.
(18) الغزالي، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق: محمد عثمان الخُشْت، مكتبة القرآن، بولاق، القاهرة، 1984، ص 76.

سَتْرِه على العبْدِ أن جَعَلَ مفاتِحَ بدَنِه التي تستقبِحُها الأعيُنُ مستورةً في باطِنِه مُغطّاةً في جمالِ ظاهرِه، وكم بين باطنِ العبدِ وظاهرِهِ في النظافةِ والقذارةِ وفي القبحِ والجمال». فالغزالي يدرك أن للجمال وظيفة، وهي ستر العيوب، وهي وظيفة جمالية وأخلاقية، ولعل أحدًا من علماء الجمال لم يقل بذلك.

وقد أكد الاهتمام بالجمال لا القبح، من منطلق أخلاقي، فقال في الكلام على اسم الله تعالى الغفار[19]: «ولا ينفكُّ مخلوقٌ عنْ كمالٍ ونقْصٍ، وعَنْ قُبْحٍ وحُسْنٍ، فمَنْ تغافَلَ عنِ المقابحِ وذَكَرَ المحاسِنَ فهو ذو نصيبٍ مِن هذا الاسْمِ [يقصُد الغفَّار]». وأشار إلى ضرورة ذكر المحاسن، والالتفات عن كل ما هو قبيح، ففي الكون قبح، وفي الكون جمال، وعلى المرء أن يمتع ناظريه بالجمال، ويعف عن القبح، وفي ذلك يقول[20]: «رُوِيَ عن عيسى عليه السلامُ أنه مَرَّ مع الحَوَارِيين على كلْبٍ ميْتٍ، قد غَلَبَ نَتَنُهُ، فقالوا: ما أنتَنَ هذهِ الجيفةَ! فقال عيسى عليه السلامُ: ما أحسنَ بياضَ أسنانِه، تنبيهًا على أنّ الذي ينبغي أنْ يُذْكَرَ مِنْ كلِّ شيءٍ ما هو أحسَنُ». ويدل موقفه هذا على رؤية موضوعية، تدرك ما في الكون من تنوع واختلاف.

ونبَّه على التفاوُت في القبح والحُسْنِ، ولا ينسى أن يربط كل قيمة، مهما تفاوتت نسبتُها، بالأخلاق والدين؛ لأن غايته البعيدة هي تهذيب الطبع، وتنمية الذوق، والحث على الأخلاق الفاضلة، فقال[21]: «إنَّ القبيحَ المطْلَقَ في الظاهرِ ممقُوتٌ، والحُسْنُ المُطلَقُ معشُوقٌ، وما بينهما دَرَجَاتٌ، فالقريبُ مِنَ الحُسْنِ المُطْلَقِ أَسْعَدُ في الدنيا مِنَ القريبِ إلى القبحِ المطلقِ، وكذلك تتفاوَتُ سعادَةُ الآخرةِ بحَسَبِ تفاوُتِ حُسْنِ الصورةِ الباطنةِ».

وواضح من سياق كلامه تمييزُه بين حُسْنِ الخَلْقِ وحُسْنِ الخُلُق، وقد عُنِيَ بذلك في مواضعَ كثيرةٍ، ومنها قوله[22]: «يُرَادُ بالخَلْقِ الصُّورةُ الظاهرةُ، وبالخُلُقِ الصُّورَةُ الباطنةُ، وذلك لأنَّ الإنسانَ مُرَكَّبٌ مِنْ جَسَدٍ يُدْرَكُ بالبَصَرِ، ومِنْ روحٍ ونفْسٍ تُدْرَك بالبصيرَةِ لا بالبَصَرِ، ولِكُلٍّ منهما هيئةٌ إمَّا قبيحةٌ وإمَّا حَسَنَةٌ». وهو بذلك لا يكتفي بالتمييز بين جمال الظاهر وجمال الباطن، بل يحدد الوسيلة لاستقبال كل نوع من أنواع الجمال، ويدل هذا التمييز على تفكير منطقي علمي، وإحساس بالجمال في ظاهره وباطنه. ويدل أيضًا على رغبة منه في أن يدرك المتلقي ما يدركه هو، لأنه يحمل أمانة التعليم والتوجيه والتربية الجمالية والأخلاقية.

وهو يرى الجمال في الكون كله والكائنات كلها، ولكنه يُعلي من جمال الإنسان، فيقول[23]: «فالفَرَسُ، وإن كان بالغا في الكياسة، لا يكون مثلًا للإنسان، لأنه مخالف له في النوع، وإنما يشبهه في الكياسة التي هي عارضة عن الماهية المقومة للذات الإنسانية». وهذا الإعلاء من القيمة الجمالية في الإنسان راجع لا إلى الظاهر ولا إلى العرض، إنما هو راجع إلى جوهر الإنسان، لأن في الإنسان نفحة من روح الله.

ويؤكد سمو الجمال عند الإنسان على سائر الكائنات، فيقول[24]: «العَرَبُ في استعمالِها تُفَرِّقُ بينَ اللفْظَينِ، إذ يُسْتَعْمَلُ الكبيرُ حيثُ لا يُسْتَعْمَلُ العظِيمُ. تقولُ العَرَبُ: فلانٌ أكبرُ سِنًّا مِنْ فُلانٍ، ولا تقولُ: أَعْظَمُ سِنًّا، وكذلك الجليلُ غيرُ الكبيرِ والعظيمِ، فإنَّ الجلالَ يُشيرُ إلى صفاتِ الشَّرَفِ، ولذلك يُقَالُ: الفَرَسُ أعظمُ مِنَ الإنسانِ، ولا يُقَالُ: أَجَلُّ مِنَ الإنسانِ».

وهو يصدر في هذا التمييز عن حسٍّ لغوي دقيق، وعن امتلاك ثقافة عربية بالإضافة إلى امتلاكه الثقافة الفارسية، وقد وحد بين الثقافتين الإسلام. ولا ننسى أنه درس الفقه الشافعي، وكان يقوم بتدريسه في المدرسة النظامية. ويظهر هذا الفهم الدقيق لأسرار اللغة العربية في كلامه على أسماء الله الحسنى، وشرحه لها. ويظهر أيضًا في كلامه على الدلالة اللغوية، والمعنى المتصور في الذهن، والموضوع الخارجي المتعيّن في الواقع[25]، وكأنه يضع بذلك أسس علم الدلالة.

(19) المصدر السابق، ص 76.
(20) المصدر السابق، ص 76.
(21) الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص 171.
(22) المصدر السابق، ص 167.
(23) الغزالي، المقصد الأسنى، ص 46.
(24) المصدر السابق، ص 42.
(25) ينظر: المصدر السابق، ص 29 وما بعدها.

2-3- أنواع الجمال:

تحدث الغزالي عن أنواع الجمال، وجعل أعلاها مرتبة جمال الإنسان، وجعله في نوعين، خلقي وخلقي، وأكدَّ هذا التصنيف. وتحدث عن جمال الطبيعة، وجمال الحيوان، ولكنه لم يصنفها إلى أنواع، إنما جاء حديثه عنها مرتَّبًا، في تضاعيف كلامه على الحسن والجمال.

والغزالي لا يغفل عن الجمال في الكائنات كلها، بل يؤكد أن صـــاحب الذوق الســـليم هو الذي يحس بالجمال أنى رآه، ويقدّره، بل يلتذّ به، فيقول[26]: «الطِّباعُ السليمةُ قاضيةٌ باستلذاذِ النَّظَرِ إلى الأنوارِ والأزهارِ والأطيارِ المليحةِ الألوانِ الحسنةِ النقشِ المتناسبَةِ الشكل، حتى إنَّ الإنسانَ لَتَنْفَرِجُ عنه الغُمُومُ والهمومُ بالنظر إليها، لا لِطَلَبِ حظٍّ وراءَ النَّظَرِ، فهذه الأسبابُ مُلِذَّةٌ، وكلُّ لذيذٍ محبوبٌ، وكلُّ حُسْنٍ وجمالٍ فلا يخلو إدراكُه عَنْ لذَّةٍ، ولا أَحَدَ يُنكِرُ كَوْنَ الجمالِ محبوبًا بالطبعِ».

والطبع السليم عنده هو الذي فطر الله عليه البشر، ولكن لا بد له من تربية وتوجيه، وترفّع فوق الرغبات والشهوات، وسمو على متاع الدنيا، وأولها شهوة البطن وشهوة الفرج[27] وحب المال[28].

وتكلَّم على جمال الطبيعة، بما فيها من جبال وأنهار وأزهار، وأكدَّ أنها جميلة في ذاتها، لا لغرض، فجمالها موضـــوعي، وخالص، وليس نفعيًّا. يقول في ذلك[29]: «والإنســـانُ قد يُحِبُّ لذاته، لا لفائِدَةٍ تُنَالُ منه في حالٍ أو مآلٍ، بل لِمُجَرَّدِ المجَانَسَـــةِ والمناسَـبَةِ في الطباعِ الباطِنَةِ، والأخلاقِ الخفيَّةِ، ويدخُلُ مِنْ هذا القِسْـمِ الحبُّ لِلْجَمَالِ، إذا لَمْ يَكُنِ المقْصـودُ قضـاءَ الشَّـهوَةِ، فإنَّ الصُّوَرَ الجميلةَ مُسْـتَلَذَّةٌ في عينِها، وإنْ قَدِرَ فَقَدَ أَصْـلَ الشَّـهْوَةِ، حتَّى يستَلِذَّ النَّظَرَ إلى الفَوَاكِهِ والأنوارِ والأزهارِ، والتُّفَّاحِ المشْـرَبِ بالحُمْرَةِ، وإلى الماءِ الجاري والخُضْـرَةِ، مِنْ غيْرِ غَرَضٍ سِوَى عينِها، إلا أنَّه إنِ اتَّصَـلَ به غَرَضٌ مذمُومٌ صـارَ مذمُومًا، كحُبِّ الصُّـورَةِ الجميلةِ لقضـاءِ الشـهوةِ حيثُ لا يَحِلُّ قضـاؤُها، وإنْ لم يتَّصِـلْ به غَرَضٌ مذمومٌ، فهو مُبَاحٌ لا يُوصَـفُ بِحَمْدٍ ولا ذَمٍّ، إذِ الْحُبُّ إمَّا مَحمُودٌ، وإمَّا مذمُومٌ، وإمَّا مُبَاحٌ لا يُحْمَدُ ولا يُذَمُّ».

وواضــح من الكلام الســابق تقدير الغزالي لموضــوع التأمل في الجمال، ومتعة النظر إلى ما هو جميل في مظاهر الطبيعة، من أنهار وأشــجار ونباتات وفواكه، لا لجني فائدة منها، إنما لمحض الاســتمتاع بصــورتها الجميلة. ويدل كلامه على أنّ تلك الأشــياء الجميلة هي جميلة في حد ذاتها، مما يعني أنّ الجمال عنده موضــوعي ومحايد، والإنســان هو الذي يوظف الجمال فيما هو حميد أو غير حميد، وهذا التقدير للجمال مرتبط دائمًا عند الغزالي بالأخلاق والقيم الدينية، وهذه هي طبيعة الحضــارة الإســلامية، وهو ابن تلك الحضارة.

وأشـار إلى جمال الأخلاق، فقال[30]: «اعلمْ أنَّ الحُسْـنَ والجمالَ موجودٌ في غيرِ المحسـوسـاتِ، إذ يُقَالُ: هذا خُلُقٌ حَسَـنٌ، وهذا عِلْمٌ حَسَنٌ، وهذهِ سيرَةٌ حَسَنَةٌ، وهذهِ أخلاقٌ جميلةٌ. وإنما الأخلاقُ الجميلةُ يُرَادُ بها: العلمُ والعقلُ والعفَّةُ والشـجاعةُ والتقوى والكَرَمُ وسـائرُ خِلالِ الخيرِ، وشـيءٌ مِنْ هذهِ الصِّـفاتِ لا يُدْرَكُ بالحواسِّ الخمسِ، بل يُدْرَكُ بنُورِ البصـيرةِ الباطنةِ، وكلُّ هذهِ الخلالِ الجميلةِ محبوبةٌ، والموصوفُ بها محبوبٌ بالطبعِ».

ولم يقف الغزالي عند جمال الإنســان والحيوان والطبيعة، بل تنبَّه إلى جمال الفن والإبداع الإنســاني، فذكر جمال الخط، وجمال الثوب، فقال[31]: «إنَّ الحُسْـنَ ليسَ مقصُـورًا على مُدرَكَاتِ البَصَـرِ، ولا على تَنَاسُـبِ الخِلْقَةِ وامتزاجِ البَيَاضِ بالحُمْرَةِ، فإنَّا نقول: "هذا خَطٌّ حَسَـنٌ، وهذا صـوتٌ حسَـنٌ، وهذا فَرَسٌ حَسَـنٌ، بل نقولُ: هذا ثَوْبٌ حَسَـنٌ، وهذا إناءٌ حسـنٌ"، فأيُّ معنًى لِحُسْـنِ الصوتِ والخَطِّ وسائرِ الأشياءِ، إنْ لَمْ يَكُنِ الحُسْنُ إلَّا في الصُّورةِ؟».

(26) الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الوعي، حلب، 1998، 10/5.
(27) ينظر: الغزالي: المنقذ من الضلال ورسائل أخرى، المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، 2014، رسالة كيمياء السعادة، ص 98.
(28) ينظر الغزالي، إحياء علوم الدين 157/4.
(29) الغزالي، إحياء علوم الدين، 262/2.
(30) المصدر السابق، 11/5.
(31) المصدر السابق، 10/5.

وهذا يعني أن الجمال عند الغزالي قيمة إنسانية يبدعها الإنسان في أعماله وصناعاته، ويعني أيضًا أن الجمال عنده قيمة اجتماعية وإنسانية، وتلك في الأحوال كلها مرتبطة بالدين والأخلاق.

وأشار إلى جمال النقش على الجدران، وجمال الخط. وذكر إعجاب الناس بهذه الفنون، وافتتانهم بجمالها، وتقديرهم مهارة صانعها، ثم عَجِبَ ممَّن ينظر في الكون، ولا يتفكر في خالقه. وهو بذلك يتخذ من كل أشكال الفن وسيلة للتفكُّر في الخالق، وقد قال[32]: «والعَجَبُ كلُّ العَجَبِ مِمَّنْ يرَى خطًّا حَسَنًا أو نقشًا حَسَنًا على حائِطٍ فيستحْسِنُه، فيَصْرِفُ جميعَ هِمّهِ إلى التفكيرِ في النقَّاشِ والخطَّاطِ، ولا يزالُ يستعظِمُه في نفْسِه، ويقولُ: "ما أَحْذَقَهُ، وما أَكْمَلَ صنعَتَهُ، وأحسَنَ قُدْرَتَه!"، ثم ينْظُرُ إلى هذه العجائِبِ في نفسِهِ، وفي غيرِهِ، ثم يغْفَلُ عنْ صانِعِه ومُصَوِّرِهِ، فلا تَدْهَشُهُ عَظَمَتُه، ولا يُحَيِّرُهُ جَلالُه وحِكْمَتُهُ».

فالغزالي يقدّر الإبداع البشري، ويحس بجماله، ويقوّمه، ويتخذه أيضًا وسيلة للتذكير بالجمال الإلهي، والتذكير بخلق الله تعالى للكون، ويؤكد هذا الوظيفة الجمالية عنده، وهي التدبر والتفكير في الجمال والكمال الإلهي.

وبذلك يكون الغزالي قد عَرَف الجمال في أنواعه كلها: جمال الإنسان؛ في خَلْقه وخُلُقه، وجمال الطبيعة، وجمال الكائنات الحية، وجمال الفن الذي يبدعه الإنسان.

3-3- الإحساس بالجمال:

وتكلم على الإحساس بالجمال، فجعله في نوعين، حسي ومعنوي، أو مادي وروحي، فقال[33]: «قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلّم: "حُبِّبَ إليَّ مِنْ دنياكُمْ ثلاثٌ: الطِّيْبُ، والنساءُ، وجُعلتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة". فتعْلَمُ أنَّ الطِّيْبَ والنساءَ فيهما حظُّ الشمِّ واللمسِ والبصرِ، والصلاةُ لا حظَّ فيها للْحواسِّ الخمْسِ، بل لِلْإدراكِ السادسِ الذي محلُّهُ القلبُ، ولا يُدْرِكُها مَنْ لا قلبَ له، ومَنِ اقتصَرَ مِنْ لذَّتِه على الحواسِّ الخمسِ فهو بهيمةٌ، لأنَّ البهيمةَ تشارِكُه فيها، وإنما خاصيَّةُ الإنسانِ التمييزُ بالبصيرَةِ الباطِنَةِ».

والغزالي بذلك يعلي من قيمة الجمال المعنوي، وهو في المقام الأول جمال ديني أخلاقي، يتمثل في الصلاة. وما إعلاؤه هذه القيمة إلا لغاية تربوية، غير مباشرة، لم يشر إليها صراحة، ومع ذلك، فهو لا يلغي القيم الجمالية في الحسيّات، ولا سيما في أمرين اثنين هما المرأة والطيب، بدليل استشهاده بحديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا يعني أن الجمال عنده مصنف إلى مراتب، وقد جعل الجمال المعنوي في المرتبة الأعلى، وفق الترتيب الوارد في الحديث المسند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وضرب مثلًا آخر للجمال المعنوي، أو جمال الخلق والروح، فقال[34]: «ما عنْدي أنَّكَ إذا حُكِيَ لك صدق أبي بكرٍ، وسياسة عُمَرَ، وسَخَاوة عُثمانَ، وشجاعة عليٍّ، رضوانُ اللهِ عليهم، لا تجدُ في نفسِك هزَّةً وارتياحًا وميلًا إلى هؤلاء، وأنتَ تعلمُ أنّ حبَّك لهؤلاء ليسَ لصُورِهم الظاهرةِ، فإنك لم تُشاهدْها، ولو شاهدْتَها ربَّما لمْ تستحسِنْها، فلو تشوَّهَتْ صورُهم الظاهرةُ، وبقِيَتْ صفاتُهم المعنويَّةُ الباطنةُ لبَقِيَ حبُّهم، وإذا فتَّشْتَ عنْ محبوبك منهم، رَجَعَ إلى صفاتِ العلمِ والقدرةِ والنزاهةِ عنِ العُيوبِ».

والغزالي بذلك يأتي بحجج من التاريخ، ومن شخصيات عرفت بتقواها وشجاعتها وحسن سياستها، ليؤكد قيمة الجمال المعنوي، بدليل أننا لم نرهم، ولا نعرف صورهم، فجمالهم أخلاقي معنوي. وهو جمال مواقف وأفعال، وفي هذا دلالة على أن الجمال المعنوي يتجسد في الإنسان، وفي مواقفه وأفعاله.

(32) المصدر السابق 228/5.
(33) الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص 232.
(34) المصدر السابق، ص 232.

وما دام الجمال في الخلق وفي الأخلاق، فإنّ المحب يحب خَلْق محبوبه وخُلُقه، ويحرص على أن يكون هو نفســـه محبوبًا في خَلْقه وخُلُقه، وقد عبَّر الغزالي عن ذلك فقال[35]: «العاشِقُ المستَغْرِقُ الهمّ بعِشْقِهِ لا يعدُو فكْرُه مِنْ أنْ يتعَلَّقَ بمَعْشُوقِهِ، أو يتعلَّقَ بنفسِهِ، فإنْ تفكَّرَ في معشُوقِهِ فإمَّا أنْ يتفكَّرَ في جمالِهِ، وحُسْنِ صُورتِهِ في ذاتِه، ليتنعَّمَ بالفِكْرِ فيه وبمُشاهَدَتِه، وإمَّا أنْ يتَفَكَّرَ في أفعالِهِ اللطيفَةِ الحَسَنَةِ الدَّالَّةِ على أخلاقِه وصفاتِهِ، ليكونَ ذلك مضَاعِفًا للذَّتِهِ ومُقَوّيًا لمحَبَّتِه. وإنْ تفكَّرَ في نفسِهِ فيكونُ فِكْرُه في صفاتِهِ التي تُسْقِطُه مِنْ عَيْنِ محبُوبِهِ حتَّى يتَنَزَّهَ عنها، أو في الصِّفاتِ التي تُقَرِّبُهُ منه، وتُحَبِّبُه إليه حتى يتَّصِفَ بها».

وبذلك يوسع الغزالي دائرة الجمال، كما يوسع دائرة الحب، ليشمل في الحقيقة البشرية كلها، وهذه الدعوة غير المباشرة، هي ما تحتاج إليه المجتمعات البشرية في الأزمنة والأمكنة كلها، وما يميز أسلوب الغزالي أنه لا ينادي ولا يدعو ولا يقرر، ولا يهجو ولا يذم ولا يقدح، إنما يحلل ويوضح، وعلى المتلقي أن يستوعب، فهو يحترم قارئه.

ثم يختم كلامه بقوله: «فمُحِبُّ اللهِ تعالَى ينبَغِي أنْ يكونَ كذلك»، أي على مُحِبّ الله تعالى أن يتصف بالصفات التي تقربه من الله، وأن يتجنَّب الصفاتِ التي تبعده عن الله، وفي هذه المقارنة ما يدل على إيمانه بجمال الله وضرورة حبه.

ويتكلم الغزالي على الحب، فيرى أن كل أنواع الحب تنطلق من حب الله تعالى، فالإنسان يحب الكائنات لأنها مِن صنع الله وبديع خلقه. وهو في الحقيقة يذكر العارف، ولكن كلامه عليه يمكن أن ينسحب على كل محب، إذ يقول[36]: «العارِفُ لا يُحِبُّ إلا اللهَ تعالَى، فإنْ أحبَّ غيْرَهُ فيُحِبُّهُ لله عزَّ وجلَّ؛ إذ قد يُحِبُّ المحِبُّ عبدَ المحبوبِ، وأقارِبَه وبلدَه وثيابَه وضـــيعتَه، وكلَّ ما هو مِنْه وإليه نِسْبتُه. وكلُّ ما في الوجُودِ صُنْعُ الله عزَّ وجلَّ، وكلُّ الخلْقِ عبادُ الله تعالى، فإنْ أحبَّ الرسولَ أحبَّه لأنَّه رسولُ محبُوبِه وحبيبُه. وإنْ أَحَبَّ طعامًا فلأنَّه يُقَوّي مَرْكَبَه الذي بِهِ يصِـــلُ إلى محبوبِه، أعني البَدَنَ. وإنْ أحبَّ الدُّنيا فلأنَّها زادُهُ إلى محبوبِه. وإنْ أحبَّ النَّظَرَ إلى الأزهارِ والأنهارِ والأنوارِ والصُّورِ الجميلةِ فلأنَّها صنْعَةُ محبوبِه، وهي دِلالاتٌ على جمالِه وجلالِه». وهذه النظرة إلى الحب نظرة إنسانية شاملة واسعة، منطلقها من الله عز وجل، لتشمل الكون والكائنات.

وواضح اقتران الجمال بالحب، لأن الجميل محبوب في طبيعته، وهذا ما أكده غير مرة في تضاعيف مؤلفاته[37].

3-4- معيار الجمال:

وجعل الغزالي للجمال المادي الحسي شرطًا، وهو التناسق والتناسب، أي أن يكون الجمال في الأجزاء كلها، وهو ما يسميه التمام، فقد قال[38]: «الحُسْنُ لا يحْصُلُ بحُسْنِ بعضِ الأعضاءِ، ما لم يحْسُنْ جميعُ الأطرافِ». وزاد معنى التمام توضيحًا وشرحًا، وذكر الكمال، فقال[39]: «كلُّ شيءٍ جَمَالُه وحُسْنُه في أنْ يَحْضُرَ كمالُهُ اللائِقُ به المُمْكِنُ له، فإذا كانَ جميعُ كمالاتِه حاضِرَةً فهو في غايةِ الجَمَال، وإنْ كان الحاضِـرُ بعضُـها، فَلَهُ في الحُسْـنِ والجَمَالِ بِقَدْرِ ما حضَـرَ، فالفرَسُ الحَسَـنُ هو الذي جَمَعَ كلَّ ما يليقُ بالفَرَسِ مِنْ هيئَةٍ وشَـكْلٍ ولونٍ وحُسْـنِ عَدْوٍ وتَيَسُّـرِ كَرٍّ وفَرٍّ عليه. والخَطُّ الحَسَـنُ كلُّ ما جَمَعَ ما يليقُ بالخَطِّ مِنْ تَنَاسُـبِ الحُرُوفِ وتوازيها واسـتقامَةِ ترتيبِها وحُسْـنِ انتظامِها. ولكلِّ شـيءٍ كمالٌ يليقُ به، وقد يليقُ بغيرِه ضِـدُّه، فحُسْـنُ كلِّ شـيءٍ في كَمَالِه الذي يليقُ به». وهذه النظرة تمتاز بالموضوعية، والنسبية، وهي إنسانية شاملة، تشمل الجمال الذي يبدعه البشر، وهو جمال الفنون، كجمال الخط.

ومفهوم التكامل والتمام والتناسب مرجعه إلى أمرين، الأول التكامل في الكون والتناسب. والثاني الجلال والكمال في الذات الإلهية، التي عنها صدر الكون كله بما فيه من كائنات.

(35) الغزالي، إحياء علوم الدين، 210/5.
(36) الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص 235.
(37) ينظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، 262/2.
(38) الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص 167.
(39) الغزالي، إحياء علوم الدين، 11/5.

وضرب مثلًا للجمال الجسدي، وأكد التناسب، والتكامل، كما أكد الفرق بين الشهوة والجمال، فقال[40]: «ولسنا نعني بالجَمَالِ ما يحرِّكُ الشَّهْوَةَ فإنَّ ذلك أنوثةٌ، وإنَّما نعني به ارتفاعَ القامَةِ على الِاسْتِقامَةِ، مع الاعتِدالِ في اللَّحْمِ، وتناسُبِ الأعضاءِ، وتناصُفِ خِلْقَةِ الوجهِ، بحيثُ لا تنبُو الطِّبَاعُ عَنِ النَّظَرِ إليه». وذكر التكامل في الجمال فقال[41]: «الحُسْنُ لا يحْصُلُ بحُسْنِ بعضِ الأعضاءِ، ما لم يحْسُنْ جميعُ الأطرافِ».

وجعل للجمال المعنوي شرطًا، وهو العدل والتوازن، فقال[42]: «كما أنَّ للحُسْنِ الظاهرِ أركانًا، كالعينِ والأنفِ والفمِ والخدِّ، ولا يُوصَفُ الظاهرُ بالحُسْنِ ما لم يَحْسُنْ جميعُها، فكذلك الصورةُ الباطِنَةُ لها أركانٌ، لا بدَّ مِنْ حُسْنِ جميعِها حتى يَحْسُنَ الخُلُقُ. وهي أربعةُ معانٍ: قوَّةُ العلْمِ، وقوَّةُ الغضبِ، وقوَّةُ الشهوةِ، وقوَّةُ العدلِ بينَ هذه القُوَى الثلاثِ، فإذا استوتْ هذه الأركانُ الأربعةُ، واعتدَلَتْ وتناسَقَتْ، حَصَلَ حُسْنُ الخُلُقِ».

وقوة العدل التي جعلها القوة الرابعة هي قوة العقل الذي يضبط سائر القوى، والذي هو وسيلة المعرفة، وفي ذلك يقول[43]: «الشَّهْوةُ والغضَبُ ينبغي أنْ يكونا تحتَ يدِ العقلِ، فلا يفعلَا شيئًا إلّا بأمْرِهِ، فإنْ فَعَلَ ذلك صَحَّ لهُ حُسْنُ الأخلاقِ، وهي صفاتُ الملائِكةِ، وهي بِذْرُ السعادةِ، وإنْ عَمِلَ بخلافِ ذلك فخَدَم الشهوةَ والغضبَ، صَحَّ له الأخلاقُ القبيحةُ، وهي صفاتُ الشياطينَ، وهو بِذْرُ الشقاءِ».

ورأى أن جمال الصورة الظاهر يدل في الغالب على جمال الباطن، فهو كالمرآة للنفس، يقول[44]: «إنَّ الجمالَ في الأكثرِ يدُلُّ على فضيلةِ النَّفْسِ؛ لأنَّ نورَ النفسِ إذا تمَّ إشراقُهُ تأدَّى إلى البَدَنِ، فالمَنْظَرُ والمخْبَرُ كثيرًا ما يتلازَمانِ، ولذلك عَوَّلَ أصحابُ الفِرَاسَةِ في معرِفَةِ مكارِمِ النفسِ على هيآتِ البَدَنِ، فقالوا: الوَجْهُ والعينُ مرآةُ الباطِنِ، ولذلكَ يظْهَرُ فيه أَثَرُ الغَضَبِ والسرورِ والغمِّ، ولذلكَ قيلَ: طَلَاقةُ الوَجْهِ عُنوانُ ما في النفْسِ». ويلاحظ أنه هنا لا يقطع برأيه ولا يجزم ولا يعمم، بل يقول في الأكثر.

وكأنّ الغزالي يقدم هنا علاجًا نفسيًّا للإنسان، فيقول له: ما تحسّ به وتنفعل ينعكس على وجهك، بل تظهر آثاره في بدنك، فعليك أن تحس بالجمال ومظاهره، وهو لا يصرح بذلك، بل يجعله نتيجة يصل إليها المتلقي من تلقاء نفسه.

وأشار إلى أن الحرمان من الحسيّات الضرورية قد يحول دون إدراك الأمور المعنوية، ويفَقَّد الإنسان الإحساس بالجمال، فقال[45]: «فالتلميذُ إذا شاهدَ كمالَ أستاذِهِ في العلْمِ انبَعَثَ بشَوْقِه إلى التشبُّه والاقتداء به، إلا إذا كان ممنوعًا بالجُوع مَثَلًا، فإنَّ استغراقَ باطنِه بشوقِ القوتِ ربَّما يمنَعُ انبعاثَ شوقِ العِلْم». وهو بذلك يقر بحاجات الإنسان الحسية، ويخشى من عدم تلبيتها، فقد يؤدي إلى فساد، أو عدم قدرة على تقدير المعنويات، وهو لا يجزم بذلك، ولكن يجعله محتملًا.

وكأنّ الغزالي يقدم شهوة الطعام على شهوة الفرج، لأنّ الطعام وسيلة العيش ولا يعيش الإنسان من غيره[46]، وهو بذلك يتقدم على فرويد الذي جعل من الرغبة الجنسية المحرّك الأول لدوافع الإنسان.

(40) المصدر السابق، 164/4.
(41) الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص 167.
(42) المصدر السابق، ص 168.
(43) الغزالي، المنقذ من الضلال– كيمياء السعادة، ص 106.
(44) الغزالي، إحياء علوم الدين، 16/4.
(45) الغزالي، المقصد الأسنى، ص 46.
(46) للتوسع ينظر كلامه على الطعام والنكاح: الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988، ص 97-98.

والغزالي بذلك لا ينكر الحسّ ولا الصورة الخارجية، ولا يتنكر للجسد، فقد قال[47]: «الفضائلُ البدنيَّةُ أربع: الصِّحَةُ، والْقُوَّةُ، والجمالُ، وطولُ العُمْرِ. ولا تَتَهيَّأُ هذه الأمورُ الأربعةُ إلا بالنِّعَمِ الخارجةِ المطِيفَةِ بالبَدَنِ، وهي أربع: المالُ، والأهلُ، والجاهُ، وكَرَمُ العَشيرَةِ». ولكنه وهو يذكر فضائل البدن، يذكر فيها قيمًا نفسية ومعنوية وأخرى اجتماعية، فكأن الجمال لديه كلٌّ متكامل.

3-5- الجمال موضوعي:

والجمال عند الغزالي جمال موضوعي، ليست الغاية منه إلا الإحساس بالجمال، وإرادة الخير، أما إذا ارتبط بمنفعة، فقد أصبح خسيسًا. وقد ذكر ذلك في سياق كلامه على الحب، فقال[48]: «والإنسانُ قد يُحِبُّ لذاته، لا لفائِدَةٍ تُنَالُ منه في حالٍ أو مآلٍ، بل لِمُجَرَّدِ المجَانَسَةِ والمناسَبَةِ في الطباعِ الباطِنَةِ، والأخلاقِ الخفيَّةِ. ويدخُلُ مِنْ هذا القِسْمِ الحبُّ لِلْجَمَالِ، إذا لَمْ يَكُنِ المقْصودُ قضاءَ الشَّهوَةِ، فإنَّ الصُّوَرَ الجميلةَ مُسْتَلَذَّةٌ في عينِها».

ويرى الغزالي أنه من الممكن أن يُحَبَّ الإنسان لذاته، لا لمنفعة، مما يدل على أن الجمال موضوعي، وليس غائيًا، يقول في ذلك[49]: «وهو حبُّكَ الإنسانَ لذاتِه، فذلكَ مُمْكِنٌ، وهو أنْ يكونَ في ذاتِه محبُوبًا عندَكَ، على مَعنى أنَّكَ تَسْتَلِذُّ برُؤيتِه ومعرفتِه ومُشَاهَدةِ أخلاقِهِ لاستحسانِك له، فإنَّ كلَّ جميلٍ لذيذٌ في حقِّ مَنْ أدرَكَ جمالَه، وكلُّ لذيذٍ محبُوبٌ، واللَّذَّةُ تَتْبَعُ الِاسْتِحسانَ، والاستحسانُ يتْبَعُ المناسَبَةَ والملاءَمَةَ والموافَقَةَ بينَ الطِّباعِ».

ويؤكد الغزالي موضوعية الجمال، وبعده عن المنفعة، فيضرب لذلك مثلين، إذ قال عن الحب المبرأ عن المنفعة[50]: «وهو حُبُّكَ المحْسِنَ في نفسِه، وإنْ لَمْ يَصِلْ إليكَ إحسانُه، وهذا موجودٌ في الطِّبَاع، فإنَّه إذا بَلَغَكَ خَبَرُ مَلِكٍ عابِدٍ عادلٍ عالِمٍ رفيقٍ بالناسِ مُتَلَطِّفٍ بهم متواضِعٍ لهم، وهو في قُطْرٍ مِنْ أقطارِ الأرضِ، بعيدٍ عنكَ، وبلغَكَ خبرُ مِلكٍ آخرَ، ظالمٍ متكبرٍ فاسقٍ متهتّكٍ شرّيرٍ، وهو أيضًا بعيدٌ عنك؛ فإنَّك تجِدُ في قلبِك تَفْرِقَةً بينهما، إذ تجِدُ في القلبِ ميلًا إلى الأوَّلِ، وهو الحُبُّ، ونَفْرَةً عنِ الثاني، وهو البُغْضُ، مع أنك آيِسٌ مِنْ خيرِ الأوَّل، وآمِنٌ مِنْ شَرِّ الثاني، فهذا حبُّ المحْسِنِ مِنْ حيثُ إنَّه مُحْسِنٌ فقط، لا مِنْ حيثُ إنَّه مُحسِنٌ إليك».

وقد تأكد غير مرة أن الجمال مترابط بالحب عند الغزالي، وهذا يعني أن الجميل يحرك العاطفة ويهزها، ويحرض العقل ويجعله يفكر في الكون[51]. ونجده يجعل الإيمان راجعًا إلى العقل والشرع، فيقول[52]: «الإيمانِ المستفادِ مِنَ العقلِ والشَّرْعِ».

ومادام الجمال موضوعيًّا، فهو قيمة ثابتة، لا تتغير، ولذلك فالجميل غير النافع وغير اللذيذ، والذي يجمع الثلاثة العلم، وهو ثابت لا يتغير، وقد عبّر عن ذلك فقال[53]: «الخيراتُ تنقسِمُ إلى نافِعٍ ولذيذٍ وجميلٍ؛ فاللذيذُ هو الذي تُدْرِكُ راحتَه في الحالِ، والنافع هو الذي يُفيدُ في المآل، والجميلُ هو الذي يُسْتَحْسَنُ في سائِرِ الأحوالِ... والذي اجتمعَ فيه الأوصافُ الثلاثةُ: العِلْمُ والحِكمةُ، فإنها نافعةٌ وجميلةٌ ولذيذةٌ عند أهلِ العلمِ والحكمةِ». وقد أكد الفرق بين إثارة الشهوة والإحساس بالجمال، فقال[54]: «ولسنا نعنِي بالجَمَالِ ما يحرّكُ الشَّهْوَةَ».

(47) الغزالي، إحياء علوم الدين، 160/4.
(48) المصدر السابق، 262/2.
(49) المصدر السابق، 260/2.
(50) المصدر السابق، 16/5–17.
(51) ينظر: الغزالي: الأربعين في أصول الدين ص 232.
(52) الغزالي: الأربعين في أصول الدين ص 178
(53) الغزالي، إحياء علوم الدين، 155/4.
(54) المصدر السابق، 164/4.

وكان من الطبيعي أن يفضّل الجمال المعنوي على الجمال الحسي، منطلقًا من القيمة العليا للجمال، وهي القيمة الدينية، المتمثلة في الأخلاق وحب الله ورسوله؛ ولذلك فضَّل حب المعنى على حب الحس، فقال[55]: «كلُّ جَمالٍ وحُسْنٍ فهو محبوبٌ، والصورةُ ظاهرةٌ وباطنةٌ، والحُسْنُ والجمالُ يشْمَلُهُما، وتُدْرَكُ الصُّورُ الظَّاهِرةُ بالبَصَرِ الظاهِرِ، والصُوَرُ الباطِنَةُ بالبصيرةِ الباطنةِ؛ فمَنْ حُرِمَ البصيرةَ الباطنةَ لا يُدْرِكُها ولا يَلْتَذُّ بها، ولا يُحِبُّها، ولا يَميلُ إليها، ومَنْ كانتِ الباطنةُ أغْلَبَ عليهِ مِنَ الحواسّ الظاهرةِ كانَ حبُّه للمعانِي الباطنةِ أكثرَ مِنْ حُبِّه للمعانِي الظاهرةِ، فَشَتَّانَ بينَ مَنْ يُحِبُّ نقشًا مُصَوَّرًا على الحائِطِ لجمالِ صورتِهِ الظاهرةِ، وبينَ منْ يُحِبُّ نبيًّا مِنَ الأنبياءِ لِجَمَالِ صورتِه الباطِنَةِ».

وهو في النص السابق يشير عَرَضًا إلى وسائل استقبال الجمال، فالجمال المعنوي تستقبله البصيرة، والجمال الحسي يستقبله البصر، ولكننا نجده يسعى إلى التوحيد بينهما، فقد أكّد انعكاس جمال المعنى والباطن على جمال الجسم والظاهر، فقال[56]: «إنَّ الجمالَ في الأكثرِ يدُلُّ على فضيلةِ النَّفْسِ؛ لأنَّ نورَ النفسِ إذا تمَّ إشراقُهُ تأدَّى إلى البَدَنِ، فالمنْظَرُ والمخْبَرُ كثيرًا ما يتلازَمانِ، ولذلك عَوَّلَ أصحابُ الفِرَاسَةِ في معرِفَةِ مكارِمِ النفسِ على هيآتِ البَدَنِ، فقالوا: الوَجْهُ والعينُ مرآةُ الباطِنِ، ولذلكَ يظْهَرُ فيه أَثَرُ الغَضَبِ والسرورِ والغمّ، ولذلكَ قيلَ: طَلَاقةُ الوَجْهِ عُنوانُ ما في النفْسِ». وفي الكلام السابق ما يدل على استقبال جمال النفس بالبصيرة، وجمال الجسد بالبصر، وفيه أيضًا ما يدل على وحدة الظاهر والباطن، وهو مفهوم نفسي، لأنّ الحالة النفسية تنعكس آثارها في الوجه.

والغزالي لا يلغي الحواس، ولا يلغي الجمال الحسي، وهو الزاهد المتصوف، بل يدرك أن الحواس هي المداخل إلى العقل، وهي الوسائل للإحساس بالجمال. وفي هذا ما يدل على تفكير علمي عقلي، بعيد عن التجريد الذهني، ولكنه يظل مؤكدًا أن الحواس وحدها غير كافية؛ لأنها مخلوقة للعالم الحسي. وأن هناك ما لا يدرك بالحواس، وهو يسميه الخاطر الذي يرد على القلب، وفي ذلك يقول[57]: «ما مِنْ أَحَدٍ إلا ويَدْخُلُ في قلبِهِ الخاطِرُ المستقِيم وبَيَانُ الحقِّ على سبيلِ الإلهام، وذلكَ لا يدخُلُ مِنَ طريقِ الحَوَاسِّ، بلْ يدخُلُ في القَلْبِ، لا يُعْرَفُ مِنْ أينَ جاء، لأنَّ القلبَ مِنْ عالَمِ المَلَكُوت، والحَوَاسُّ مَخْلُوقَةٌ لهذا العالَمِ».

ومن الطبيعي أن يجعل اللذة الكبرى في حب الله، جلَّ شأنه، لأنه هو منبع الجمال، فيقول[58]: «لذَّةُ كلِّ شيءٍ تكونُ بمُقْتَضَى طبْعِهِ، وطبْعُ كلِّ شيءٍ ما خُلِقَ له، فلذَّةُ العيْنِ في الصُّوَرِ، ولذَّةُ الأُذُنِ في الأصواتِ الطيِّبَةِ، ولذَّةُ القلْبِ الخاصَّةُ بمعرفَةِ اللهِ سبحانَه وتعالى، لأن القلبَ مخلوقٌ لها، وكلَّما كانتِ المعرِفةُ أكبرَ، كانتِ اللَّذَّةُ أكبرَ». وواضح أيضًا أنه لا ينكر أنواع الملذات، ولكنه يجعل أعلاها حب الله، ولا يكون إلا بالقلب.

والقلب عند الغزالي هو المتحكم في الجسد كله، فإذا امتلأ القلب علمًا، استجابت إليه الجوارح كلُّها، وفي هذا يقول[59]: «إذا حَصَلَ العِلْمُ في القلبِ تغيَّرَ حالُ القلبِ، وإذا تغيَّرَ حالُ القلبِ تغيَّرَتْ أعمالُ الجَوَارِحِ، فالعَمَلُ تابِعُ الحالِ، والحالُ تابِعُ العلمِ، والعلمُ تابعُ الفكرِ، فالفِكْرُ إذًا هو المبْدَأُ والمفتاحُ للخيراتِ كلِّها».

والقلب هو أهم ما في الإنسان، فإن صلح صلح الإنسان، والعين هي المدخل إلى القلب، يقول[60]: «وحَسْبُكَ أنَّ مدارَ أَمْرِ الدينِ والدُّنيا علَى القلْبِ، وأنَّ خَطَرَ القلبِ وشُغْلَه وفَسَادَه في الأكثرِ مِنَ العَيْنِ، ولذلك قال عليٌّ رضيَ اللهُ عنه: مَنْ لم يملِكْ عينَه، فليسَ للقَلْبِ عندَه قيمَةٌ».

(55) المصدر السابق، 13/5.
(56) المصدر السابق، 163/4.
(57) الغزالي، المنقذ من الضلال– كيمياء السعادة ص 10.
(58) الغزالي، المنقذ من الضلال ورسائل أخرى، المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، 2014، رسالة كيمياء السعادة، ص 113.
(59) الغزالي، إحياء علوم الدين، 209/5.
(60) الغزالي، منهاج العابدين، ص 97.

والقلب عند الغزالي ليس العضلة التي تضخّ الدم، وإنما هو الروح. وغذاء القلب هو المعرفة، وفي هذا يقول[61]: «كما أنَّ أَوْفَقَ الأشياءِ للأبدانِ الأغذيةُ، فأوْفَقُ الأشياءِ للقلوبِ المعرِفَةُ، فالمعرفةُ غذاءُ القلْبِ، وأَعْني بالقلبِ الروحَ الربَّانِيَّ الذي قالَ اللهُ تعالى فيه: ﴿قُلِ الروحُ مِنْ أمرِ ربِّي﴾. وقالَ تعالَى: ﴿ونَفَخْتُ فيه مِنْ رُوْحِي﴾، فأضافَهُ إلى نفسِه».

ويبدو القلب عند الغزلي معينًا للعقل، ومكمّلًا له، فالعقل للمعرفة الحسية[62]، والقلب للمعرفة الروحية. وعنده يتكامل العقل والقلب، فالعقل يسيطر على الجسم والرغبات والحواس، والقلب ينفتح للخاطر الإلهي[63].

3-6- الجمال المطلق: الكمال والجلال:

الجمال المطلق عند الغزالي هو جمال الله عز شأنه، ويتجلى جماله في الكمال والجلال. ولا يدرك جماله إلا الملائكة، ويمكن أن يدرك جمالَه مِنَ البشر مَنْ كان فيه مِن الملائكة قوّة، يقول[64]: «إنَّ سعادةَ البهائِمِ في الأكْلِ والشُّرْبِ والنَّوْمِ والنِّكاح، فإنْ كنتَ مِنهم فاجْتَهِدْ في أعمالِ الجَوْفِ والفَرْجِ. وسعادةَ السِّباعِ في الضرْبِ والفَتْكِ. وسعادَةَ الشياطينِ في المكْرِ والشَّرِّ والحِيَلِ، فإنْ كنتَ منهم فاشْتَغِلْ باشتغالِهم. وسعادةَ الملائكةِ في مشاهدةِ جمالِ الحضرةِ الرُّبُوبِيَّة. وليسَ لِلْغَضَبِ والشهوةِ إليهم طريقٌ، فإنْ كنتَ مِنْ جوهرِ الملائكةِ فاجتهدْ في معرفةِ أصلِكَ حتَّى تعرِفَ الطريقَ إلى الحضرةِ الإلهيَّة، وتبلُغَ إلى مشاهَدَةِ الجلالِ والجمالِ».

على أن التوجه إلى المطلق الكلي الجمال لا يعني الحرمان من الدنيا وما فيها، بل يعني حبها لا في ذاتها، بل على أنها من خلق الله وجميل صنعه، وفي ذلك قال[65]: «العارِفُ لا يُحِبُّ إلا اللهَ تعالَى، فإنْ أحبَّ غيْرَهُ فيُحِبُّهُ لله عزَّ وجلَّ؛ إذ قد يُحِبُّ المحِبُّ عبدَ المحبوبِ، وأقارِبَه وبلدَه وثيابَه وضيعتَه، وكلَّ ما هو مِنْه وإليه نِسْبتُه. وكلُّ ما في الوجُودِ صُنْعُ الله عزَّ وجلَّ، وكلُّ الخلْقِ عبادُ الله تعالى، فإنْ أحبَّ الرسولَ أحبَّه لأنَّه رسولُ محبُوبِه وحبيبُه. وإنْ أَحَبَّ طعامًا فلأنَّه يُقَوّي مَرْكَبَه الذي بِهِ يصِلُ إلى محبوبِه، أعني البَدَنَ. وإنْ أحبَّ الدُّنيا فلأنَّها زادُهُ إلى محبوبِه. وإنْ أحبَّ النَّظَرَ إلى الأزهارِ والأنهارِ والأنوارِ والصُّورِ الجميلةِ فلأنَّها صنْعَةُ محبوبِه، وهي دِلالاتٌ على جمالِه وجلالِه».

ويدل كلام الغزالي على ثقته بالإنسان، ويقينه بأنه يملك جوهر الملائكة، وما عليه إلا أن يعرف هذا الجوهر، ويحققه في نفسه، لكي يعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية، ويتمكن من مشاهدة الجلال والجمال. ويؤكد ثقته بالإنسان إيمانه بطهارة النفس البشرية، وهي عنده النفس الناطقة، وقدرتها على تلقي الإشراق من النفس الكلية، وهي الذات الإلهية، ولا يمنعها من ذلك إلا انشغالها بأمور الدنيا، وقد قال في ذلك[66]: «النفسُ الناطِقَةُ الإنسانِيَّةُ أهلٌ لإشراقِ النفسِ الكُلِّيَّةِ عليها، ومُسْتَعِدَّةٌ لقَبُولِ الصُّوَرِ المعقُولَةِ عنها بِقُوَّةِ طهارتِها الأصليَّةِ وصفاتِها، ولكنْ يمرَضُ بعضُها في هذهِ الدنيا، ويمتَنِعُ عَنْ إدراكِ الحقائقِ بأمراضٍ مُخْتَلِفَةٍ وأعراضٍ شتَّى، ويبقَى بعضُها على الصِّحَّةِ الأصليَّةِ بلا مَرَضٍ ولا فَسَادٍ».

ويؤكد ثقتَه بالإنسان تصوُّرُه الجمالي للإنسان، فهو يرى الإنسان وقد اخْتُزِلَ الكونُ كلُّه فيه، وتوحَّد به واتَّحد، فهو القائل[67]: «نفسُ الإنسانِ مُختَصَرَةٌ مِنَ العالَمِ، وفيها مِنْ كلِّ صورةٍ في العالَمِ أثرٌ منه، لأنَّ هذهِ العظامَ كالجبالِ، ولحمَه كالتُّرابِ، وشعرَه كالنباتِ، ورأسَه مثلُ السماءِ، وحواسَّه مثلُ الكواكبِ. والقُوَّةَ التي في المعدةِ كالطبَّاخ، والتي في الكَبِدِ كالخبَّاز. وشَرْحُ ذلك طويلٌ... والمقصودُ أنْ تعلَمَ كمْ في باطِنِكَ مِنْ عوالِمَ مختلفةٍ، كلُّهم مشغولونَ بخدمَتِك، وأنتَ في غفلَةٍ عنهم، وهمْ لا يستريحون، ولا تعْرِفُ أنت، ولا تشْكُرُ مَنْ أنْعَمَ عليك بهم».

(61) الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص 237.
(62) ينظر: الغزالي: معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص 71 وما بعدها.
(63) الغزالي، المنقذ من الضلال– كيمياء السعادة ص 10.
(64) المصدر السابق، ص 98.
(65) الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص 235.
(66) الغزالي، مجموعة رسائل الإمام الغزالي، دار الفكر، بيروت، 2008، الرسالة اللَّدُنيَّة، ص 233.
(67) الغزالي، المنقذ من الضلال– كيمياء السعادة، ص 114.

وقوام هذه النظرة تقدير الإنســـان، ولا تعني بحال من الأحوال القول بوحدة الوجود أو القول بالاتحاد أو الحلول، وإنما هي نظرة إنسانية، تضع الإنسان في القلب من الكون، لتقدير جماله وتقدير مكانته. وكل الفلسفات التي جاءت فيما بعد جعلت من الإنسان محور الكون.

وثقة الغزالي بالإنسـان نابعة من يقينه بأن وجود الإنسـان ليس مجرد وجود حسـي مادي عارض، بل هو وجود الحقيقة؛ لأن الإنسان هو ظل الحقيقة الكلية، والكلُّ مِن صُنْعِ الله، وقد عبَّر عن ذلك، فقال[68]: «الأشخاصُ، بل سائِرُ المحسوساتِ ليسَ لها حقيقةُ الوجودِ، بلِ الوجودُ الحقيقِيُّ لِعالَمِ الأمْرِ والمَلَكُوتِ، فالعالَمُ الجِسْـــمَانِيُّ ليسَ له وجودٌ حقيقِيٌّ، بل هو مِنْ ذلِكَ العالَمِ كالظِّلِّ مِنَ الأجسَـامِ، وليسَ لِظِلِّ الإنسـانِ حقيقةُ الإنسـانِ، وليسَ للشـخصِ حقيقةُ الوجودِ، بلْ هو ظِلُّ الحقيقةِ، والكُلُّ مِنْ صُـنْعِ اللهِ تعالَى». وهو في هذه الفكرة متأثر بأفلاطون الذي قال بعالم المثُل، وأن كل ما نراه ليس في الحقيقة إلا ظلٌّ للمُثُل.

ولكن، مع ذلك، لم يغفل الغزالي عن الجمال الحسي، ولم ينكره، بل أكده. وقد مرَّ في غيرِ موضع إشارتُه إلى جمال الأزهار والأطيار والأواني الجميلة، بل إنه أشار إلى ما في المرأة من جمال حسي ومعنوي، وما يكون معها مِن أُنْس ولطف، بالنظر والحديث والمجالســة. وفي هذا ما يدل على عقل متفتح، وتفكير إنســاني معتدل، لا تطرف فيه ولا مغالاة، فقد قال[69]: «ترويحُ النَّفْسِ، وإيناسُها بالمجَالَسَةِ والنَّظَرِ والمُــلاعَبَةِ إراحَةٌ للقَلْبِ، وتَقْوِيَةٌ له علَى العبادةِ، فإنَّ النفْسَ مَلُولٌ، وهي عَنِ الحقِّ نَفُورٌ. وفي الاستِئْناسِ بالنساءِ ما يُزِيلُ الكَرْبَ، ويريحُ القَلْبَ، ويَنبَغي أنْ يكونَ لنفوسِ المُــتَّقينَ استِراحَاتٌ بالمُــبَاحاتِ». وواضح أنه حريص دائمًا على القيم والأخلاق.

وهذا لا يتناقض مع قوله بأن إدراك الجلال والجمال الكامل لا يكون إلا بالقلب، بعيدًا عن الحس، بل يتكامل معه، فهو يدرك أن هناك جمالًا كليًّا مطلقًا. وأن هناك جمالًا جزئيًّا، ولا بد من الجزئي لإدراك الكلي، ولا بد من المعرفة الحســية، لتحقيق الإدراك العقلي، ولكن مَنِ اقتصــر على اللذة الحســية وحدها، فهو المذموم. وهذا ما أكده بقوله[70]: «قال النبيُّ صــلَّى اللهُ عليه وسلّم: "حُبِّبَ إليَّ مِنْ دنياكُمْ ثلاثٌ: الطِّيْبُ، والنساءُ، وقُرَّةُ عيني في الصلاةِ". فتعْلَمُ أنَّ الطِّيْبَ والنساءَ فيهما حظُّ الشمِّ واللمسِ والبصرِ، والصلاةُ لا حظَّ فيها للْحواسِّ الخمْسِ، بل لِلْإدراكِ السادسِ الذي محلُّهُ القلبُ، ولا يُدْرِكُها مَنْ لا قلبَ له. ومَنِ اقتصَرَ مِنْ لذَّتِه على الحواسِّ الخمسِ فهو بهيمةٌ، لأنَّ البهيمةَ تشاركُه فيها، وإنما خاصيَّةُ الإنسانِ التمييزُ بالبصيرَةِ الباطِنَةِ».

وقد أشــار عالم الجمال برتليمي إلى الترجح بين الحســيّ والعقليّ، فقال[71]: «إن اللذة الملموســة هي التي تكشــف لهذا الحيوان، الذي هو أنا، عن عالم الاحتياج والغريزة، ولذة الفهم تحدد استعدادي العقلي للدخول في عالم الأفكار، أما اللذة الجمالية فهي التي تشهد بأني أستطيع الوصول إلى عالم الفن، وهي بهذه الصفة قادرة على إرشادي عما يتعلق بهذا العالم نفسه، وهي لذة مركبة: لكل من الجسد والروح نصيب فيها، ولهذا السبب تأرجح الفلاسفة دائمًا بين الحسية والعقلية».

وفي الواقع لم يتردد الغزالي بين الحسـيّ والعقليّ، ولم يترجَّح بينهما، بل فضَّـل الجمال العقلي، ولكنه لم ينكر الجمال الحسـي، بل أكد أن من يحب ما هو دنيوي فإنما يحبه لأنه من خلق الله عز وجل، ولأنه يتخذه وســيلة لحب الله؛ لأن الله عز وجل هو المصدر الأول لكل جمال، وقد قال في ذلك[72]: «كلُّ ما في العالَمِ مِنْ حُسْنٍ وإحسانٍ فهو حَسَنَةٌ مِنْ حَسَنَاتِ جُودِه، يسُوقُها إلى عبادِه بخطْرَةٍ واحدَةٍ، يخلُقُها في قلبِ المحْسِن. وكلُّ ما في العالَمِ مِنْ صُورةٍ مليحةٍ وهيئةٍ جميلةٍ، تُدْرَكُ بعينٍ أو سَمْعٍ أو شَمٍّ، فأَثَرٌ مِنْ آثارِ قُدْرَتِه التي هي بعضُ معانِي جمالِه وجلالِه».

(68) الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص 56.
(69) الغزالي، إحياء علوم الدين، 49/2–50.
(70) الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص 232.
(71) برتليمي، جان، بحث في علم الجمال، ص 380.
(72) الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص 236–237.

وأكد أيضًا أن الجمال يشمل الباطن الظاهر، ولا بد من تقدير كل منهما، وهذا الرأي يدل على عدل وتوازن، ويؤكد الموضوعية، فقد قال[73]: «كلُّ جَمالٍ وحُسْنٍ فهو محبوبٌ، والصورةُ ظاهرةٌ وباطنةٌ، والحُسْنُ والجمالُ يشْمَلُهُما، وتُدْرَكُ الصُّورُ الظَّاهِرةُ بالبَصَرِ الظاهِرِ، والصُوَرُ الباطِنَةُ بالبصيرةِ الباطنةِ؛ فمَنْ حُرِمَ البصيرةَ الباطنةَ لا يُدْرِكُها ولا يَلْتَذُّ بها، ولا يُحِبُّها، ولا يَميلُ إليها. ومَنْ كانتِ الباطنةُ أغْلَبَ عليهِ مِنَ الحواسِّ الظاهرةِ كانَ حبُّه للمعاني الباطنةِ أكثرَ مِنْ حُبِّه للمعاني الظاهرةِ. فَشَتَّانَ بينَ مَنْ يُحِبُّ نقشًا مُصَوَّرًا على الحائِطِ لجمالِ صورتِهِ الظاهرةِ، وبينَ منْ يُحِبُّ نبيًّا مِنَ الأنبياءِ لِجَمَالِ صورتِه الباطِنَةِ».

إن الجمال عند الغزال قائم في الكون كله، وتلقّيه متنوعٌ ومختلف، فالجمال حرية، وتلقيه حرية، وإن كان الجمال الحق هو الجمال الكلي المطلق، الذي تنبثق منه جميع أشكال الجمال، وإليه يتوجه الحب الحق.

4- خاتمة

وهكذا تتضح مفاهيم الجمال لدى الغزالي، فهو يرى الجمال متحققًا في الكون كله، في البشر والحجر والشجر؛ لأنها جميعًا مِن صُنْع الله. والجمال فيها جزئي حسي، يُدْرَك بالحواس، ويَستلِذُّ به النظر، ولو لم يُسْتَفد منه، بل قد يكون على السماع، فثمة جمالٌ في الخَلْق، وجمال في الخُلُق، أي ثمة جمال في الصورة الظاهرة، وجمال في الصورة الباطنة. ومرجع هذا كله إلى الجمال الكلي المطلق، وهو جمال الله عزَّ وجل الموصوف بالجلال والكمال، والإدراك الأمثل للجمال هو إدراك الجلال والكمال، ولا يكون إلا بالقلب.

وقد تنبَّه الغزالي أيضًا إلى الجمال الفني، الذي يصنعه الإنسان، كجمال الأواني والنقوش والخط، وأدرك قيمتها في ذاتها، لا فيما يُستفاد منها. وقد دلَّ الغزالي على عقل متفتح، ووعي حضاري، فيه عدل وتوازن. وكان مُنطلقه الأول الأخلاق، وكان تربويًّا أكثر منه عالمَ جمال، ولكن إذا جُمِعَت نظراته وآراؤه المتناثرة في كتبه أمكن الوصولُ إلى مفهوم جمالي، عماده حب الكمال والجلال، ولهذا الجمال تجليات كونية وهي ذات قيمة جمالية في حد ذاتها.

ولا يمكن للمرء أن ينكر أن الغزالي كان في كلامه على الجمال تربويًا صوفيًّا أكثر مما كان عالم جمال، ومن الظلم له ولعصره أن يطالب بأن يكون عالم جمال، ولكن لا سبيل إلى إنكار أنه كان صاحب نظرات في الجمال، فيها من نفاذ البصيرة، وعمق التحليل قدر كبير. وفيها أيضًا قدر كبير من بلاغة التعبير، والقدرة على التوصيل إلى المتلقي بسهولة ووضوح، بعيدًا عن الغموض والتعقيد. وهو في نظراته ومفاهيمه الجمالية متماسك، ليس في نظراته خلل أو تناقض، ومرجع هذا إلى صدوره في فهم الجمال عن الجمال الكلي المطلق، وهو جمال الله عز وجل.

ومما لا شك فيه أن الغزالي هو ابن عصره الذي شهد نهضة ثقافية ومعرفية وعلمية كبيرة، وهو ممثل الثقافة العربية الإسلامية في أبهى صورها.

المصادر (مؤلفات الغزالي)

- **إحياء علوم الدين**، دار الوعي بحلب، حلب، 1998.
- **الأربعين في أصول الدين**، عناية: محمود بيجو، مطبعة الفوال، دمشق، 1994.
- **أيُّها الْوَلَدُ**، ضبطه: رياض مصطفى العبد الله، منشورات دار الحكمة، دمشق – بيروت، 1986.
- **تهافت الفلاسفة**، تقديم: الدكتور صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 2014.
- **مجموعة رسائل الإمام الغزالي**، دار الفكر، بيروت، 2008.
- **معارج القدس في مدارج معرفة النفس**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.
- **المقصِد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، تحقيق: محمد عثمان الخُشْت، مكتبة القرآن، بولاق، القاهرة، 1984.

(73) الغزالي، إحياء علوم الدين، 13/5.

- **المنقذ من الضلال ورسائل أخرى**، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 2014.
- **منهاج العابدين**، تحقيق: بدر الدين علاوي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 2016.

المراجع

- **ابن الكلبي**، كتاب الأصنام، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 3، 1995.
- **امرؤ القيس**، الديوان، تحقيق: د. محمد الشوابكة، و د. أنور أبو سويلم، دار عمار، الأردن، 1998.
- **برتليمي**، جان، بحث في علم الجمال، ترجمة: د. أنور عبد العزيز، ود. نظمي لوقا، دار نهضة مصر، القاهرة، 1970.
- **بهنسي**، د. عفيف، الفكر الجمالي عند التوحيدي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997.
- **زهير بن أبي سلمى**، الديوان، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1964.
- **سالم**، د. محمد عزيز نظمي، الفن بين الدين والأخلاق، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1996.
- **الشامي**، صالح أحمد، الإمام الغزالي، دار القلم، دمشق، 1993.
- **عباس**، د. راوية عبد المنعم، الحس الجمالي وتاريخ الفن، دراسة في القيم الفنية والجمالية، دار النهضة العربية، بيروت، 1998.
- **فروخ**، د. عمر، عبقرية العرب في العلم والفلسفة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، كتاب الجيب، العدد 139، كانون الثاني، 2019.